الحرف والصناعات التقليدية في شمال المغرب

خلال الفترة المعاصرة (غمارة نموذجا)

د. معاذ البكوري[1]

جامعة مُحَمَّد بن عبد الله – فاس– المغرب

ملخص:

ظل التاريخ الاقتصادي للمغرب المعاصر والراهن غير مفكر فيه بما يكفي من لدن المؤرخين المغاربة، في وقت جرى فيه التركيز بشكل كبير على التاريخ السياسي والعسكري، لدرجة أن تاريخ مغرب القرن العشرين جرى اختزاله، إما في تاريخ الحركة الوطنية المغربية وامتداداتها أو في تاريخ الأحزاب السياسية أو المقاومة المسلحة المرتبطة بالتصدي لزحف القوات الاستعمارية الساعية لاحتلال المغرب أو في الأحداث المرتبطة بتدبير الحكم في المغرب المستقل والصراع حوله. وهكذا تناسى معظم المؤرخين المغاربة الواقع الاقتصادي للبلاد إبان الفترة الاستعمارية وبعدها، مع أن الاقتصاد تحكم بشكل كبير فيما عرفته البلاد من أحداث وتحولات. وهكذا، ترك مجال تناول هذا الواقع لباحثين أجانب ولباحثين مغاربة من خارج حقل التاريخ، فكانت الحصيلة حرمان التاريخ الاقتصادي لمغرب القرن العشرين من المعالجة النظرية والتطبيقية، الكفيلة بتسليط الضوء على أماكن العتمة من تاريخنا المعاصر والراهن، وتفسير تطور البلاد، بعد توقيع معاهدة الحماية الفرنسية والإسبانية.

غالبا ما يرتبط التاريخ الاقتصادي بالاجتماعي، ويكفي القيام بفهرسة لمواضيع البحوث التي أنجزت حول تاريخ المغرب المعاصر للوقوف على الإنتاجات الغزيرة التي اختارت الاشتغال على مواضيع ذات طابع سوسيواقتصادي، ورغم ذلك فإن مكانة التاريخ الاقتصادي الحقيقية ضمن هذه الأبحاث كانت تراوح مكانها، حيث يتم المرور بشكل عابر على المعطيات الاقتصادية والانصراف بشكل مسهب في تحليل أثرها وتداعياتها على المجتمع. لذلك، كان من الأفيد إنجاز أعمال تهتم بالتاريخ الاقتصادي، وتعنى بتشريح الواقع الاقتصادي، وتقديم معطيات يمكن استثمارها لتحليل تطور البلاد في مختلف الأصعدة.

وبناء عليه، خصصنا هذا المقال للتطرق إلى بعض الركائز الكبرى في الاقتصاد الغماري المغلق: الحرف والصناعة التقليدية ومحاولة الإلمام بمؤهلاتها وخصائصها. فما هي أهم ركائز الصناعة التقليدية الغمارية ؟ وما أهم الحرف الغمارية وتوزيعها الجغرافي ؟ وهل شهدت المنطقة تأسيس نواة للصناعة العصرية خلال فترة الحماية؟

1–الاستغلال المعدني بقبائل غمارة

من المعلوم أن أي نواة للحرف التقليدية تحتاج إلى مواد أولية، ولن تستطيع توفير ذلك إلا من خلال الوسيط التجاري في إطار المعاملات التجارية المقننة، ويمكن تصنيف المواد التي تتوفر عليها المنطقة إلى نوعين:

- المواد الفلاحية: الزيتون–الكتان–الجلد–الكروم–الصوف.
- المواد الأولية (المعادن): النحاس–الفضة–الفحم–الطين–الحديد.

بالنسبة للنوع الأول، ساعد توفر المنطقة على نسبة هامة من أشجار الزيتون (بما فيها أيضا العرصات والجنانات سواء التي في ملكية الخواص أو المحبسة) على خلق نواة صناعية محلية تتمثل في استخراج الزيوت والصابون.

(استخراج) الزيوت: يتضح من خلال الوصف الذي قدمه موليراس وأرشيف كارلوس بيريدا أن معظم البوادي الغمارية كانت تستخرج كميات من الزيوت، كما وردت إشارات في كتب الحوالات الحبسية عن وجود دور خاصة لمثل هذه الصناعة في بني خالد وبني رزين.

الصابون: ذكر موليراس عن القبائل الجنوبية لبلاد غمارة أنهم يشتغلون بهذه الحرفة، بحكم قربهم لحاضرة قبائل غمارة "شفشاون"[2]. لكن يبدو أن هذا النوع من الصناعات طرح تساؤلات في الأوساط الدينية والفقهية، خصوصا المتعلقة بالممارسات غير المشروعة كالغش والتدليس، وقد كانت العناصر اليهودية والمسيحية هي التي تتعاطى لهذا النوع من الحرف.

الكتان: كانت منتشرة خاصة بمرتفعات غمارة (بني سلمان، بني منصور، بني خالد) وتزاول بشكل مكثف داخل بعض الأسر واعتبرت موردا رئيسيا لمتطلباتها[3].

الصوف: ارتبطت بنسبة قطيع الغنم، ويرجع ذلك إلى الظروف الطبيعية التي تتسم بها المنطقة، وقد لوحظ أن هذا النوع من الحرف كان أكثر التصاقا بالحياة اليومية من أي حرفة أخرى، فيما عدا المواد الغذائية وما ارتبط بها، وهي تتنوع إلى حرف يزاولها حرفيون في الأسواق، وأخرى عائلية تزاول في المنازل.

ونركز هنا على مساهمة المرأة الغمارية بشكل كبير في رفع نسبة إنتاج هذه الصناعات، لأنها كانت تهتم بتربية دودة القز لاستخراج الحرير، إضافة إلى مشاركتها الفعالة في عمليات الزرع والدرس والحصاد، وقد وجدت المرأة الغمارية أسواقا واسعة لبيع منتوجاتها وتحقيق أرباح هامة.

الجلود أوما يعرف بالدباغة: وهي عملية تنظيف الجلود وتليينها بآلة أو مادة، وينقع الجلد في الماء مدة معلومة تتزايد بقدم عهد الجلد والنقع إما في حوض أو في نهر، ويتكرر النقع والتنظيف عدة مرات. ومعروف أن المدابغ الغمارية عادة ما تكون بجوار الأودية.

وقد ذكر لنا موليراس أنه وجد بأحد مداشر قبيلة بني خالد "مدشر الدباغين" مئات من الأسر، غير بعيد عن منبع واد امطير عند الحدود الجنوبية لغمارة، كانوا يدبغون قديما جلد الخنازير، الذي يصنعون منه وزرة كبيرة من الجلد،

تغطي الصدر والبطن إلى غاية الركبتين، وكانوا يقطعون الأدغال والغابات بهذه المآزر التي تحمي جلابيبهم من العليق والأغصان والأشواك[4].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الجلود، وفرت مادة أولية هامة لصانعي الأحذية (البلغة) و"البرادع" وسلع أخرى، فوجدت أسواقا متعددة، سواء لجلود البقر أو الماعز، وخلقت منافسات عديدة بين التجار لكونها كانت تحقق أرباحا.

زيت الطرو: يتم تحويل حب نبات الطرو إلى زيت، فعندما ينضج الحب في يناير ويتحول لونه إلى الأحمر ثم إلى الأسود يتم تجميعه، فيوضع فوق بعضه ليرقد لمدة عشرة أيام، ثم يصفى من الأوراق بواسطة الغربال، ويتم الاحتفاظ بالحبات السوداء فتسحق في حفر يصل عمقها إلى 50 سنتمترا بواسطة قضيب (الدقاق)، ويسخن الماء ليتم تبخير المسحوق كالطعام، وبعد غربلته يوضع في سلة من العزف (تاشميت) موضوعة فوق حجارة، وتوضع فوق "تاشميت" حجارة أخرى، وفي الأسفل توضع آنية لصب الزيت، وبعد الحصول على الزيت، يسخن لإبعاد الرائحة، ولزيت الطرو عدة استعمالات كعلاج الماشية وترطيب السوط.

"الخمور" أو "الصامت"(باستغلال الكروم): كانت منتشرة في غمارة بشكل مكثف، ويعزى ذلك إلى المساحات الشاسعة التي خصصت لهذه الأنواع من المزروعات التي لا تتطلب—كما سبق الذكر-تكاليف أو ظروفا طبيعية ملائمة. ويقول موليراس في هذا الصدد: "أما داخل الأسر الغمارية، فيصنع هلام العنب (الصامت)[5] والخمر والخل، ولا تتطلب الكروم أية عناية خاصة..."[6]. وقد رأينا كيف طرحت على الفقهاء المنطقة تساؤلات عديدة حول طبيعة استغلال الكروم.

أما بالنسبة للعنصر الثاني، فإن الخصائص الجيولوجية للمنطقة لعبت دورا مهما في تحديد نوعية المعادن التي يمكن أن تتوفر عليها لخلق "صناعة تحويلية".

– الحديد: إن أهمية هذا المعدن فرضته الظروف السياسية والتاريخية حيث إنه يستعمل لصناعة الأسلحة والعدة الحربية، إضافة إلى الأدوات الفلاحية كالفؤوس والمناجلالخ، والأدوات التي يحتاجها الصناع والحرفيون، وفي هذا الصدد أشار موليراس إلى وجود معدني الحديد والرصاص بقبيلة بني رزين.

– الفضة والنحاس: مادتان أساسيتان بالنسبة لاقتصاد المغرب بصفة عامة، والمنطقة بصفة خاصة، خصوصا لصناعة الحلي والعملة، إضافة إلى مصنوعات أخرى، ومن الأدوات المنزلية (الأواني). وقد أقبل التجار الأجانب عبر الساحل الغماري على هاتين المادتين بشكل كبير، نظرا لأهميتهما في الدورة الاقتصادية[7]، فمعظم المعاملات كانت تتم بواسطة النقود المصنوعة من الفضة والنحاس خصوصا خلال القرن 19م.

لكننا في الحقيقة لسنا واثقين من هذه المعطيات كل الوثوق لسبب بسيط، وهو أن ضرب السكة كان من اختصاص المخزن، لكن هناك دلائل تؤكد أن تاغسة كانت بها دار للسكة خلال العصر الوسيط (العهد المريني)[8].ويذكر أحد سكان تاغسة اليوم بأنه يتوفر على بعض القطع منها[9].

وعلى العموم فإننا نستبعد هذه الدار خلال الفترة المدروسة، وأما استغلال هذه المعادن من طرف السكان، ربما كان يتم بطرق عشوائية لبيعها عن طريق التهريب، وخاصة وأن الطلب على هذه المواد كان متزايدا خلال النصف الثاني من القرن 19م، أو كانت تقوم بسبكها وإرسالها إلى فاس حيث توجد دور الصناعة[10].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد حارب الفقهاء عمليات الغش التي كانت تحدث في هاتين المادتين (الفضة والنحاس) خلال المعاملات التجارية والاجتماعية، حيث كان الصناع يقومون بخلط مادتي الفضة والذهب بالنحاس.

وعموما، تكفي نظرة سريعة على الخريطة الجيولوجية لغمارة لإدراك غنى المنطقة بمناجم الرصاص والحديد والنحاس، وقد اشتهر الأهالي باستغلالهم لهذه المناجم، غير أن تنقيبهم لم يتجاوز الطبقات السطحية للأرض، ويتوقفون عند اصطدامهم بالصخور. ويفاجأ المرء بوجود آثارعميقة أغلقت مع مرور الزمن[11]، بينما يذهب موليراس إلى وجود الذهب بكثرة، حيث يقول: "إن الطبقة الجيولوجية لغمارة الشاسعة، هذا المعبر الجبلي المستقبلي لإفريقيا الشمالية، تحتاج إلى دراسة دقيقة، فمناجم الذهب التي مستها معاول الأهالي بالكاد تحتفظ بثرواتها لكل من سيحتل هذا البلد الغني"[12]، غير أن هذا الوصف كان دعائيا فقط يضخم الثروات النفيسة لتشجيع الفرنسيين من أجل احتلال المغرب، غير أنه استطاع أن يرصد لنا بعض التجارب الكيميائية في قلب غمارة (قبيلة بني بوزرة) حيث يقول: "وكانت أول زيارة قام بها مُحَمَّد بن الطيب لبني بوزرع بمثابة حدث، إذ كان عبد الفضيل منهمكا في تجاربه الكيميائية، معتقدا أنه سيبتكر شيئا جديدا... وهو اليوم مقتنع بأن المغاربة لن يصلوا إلى نتائج مرضية اعتمادا على أدواتهم الغريبة، والتي تثير سخرية أهالي الأوطان المتنورة..."[13]، يتضح من خلال هذا الوصف، النظرة المتعالية والتبرير للإمبريالية اتجاه المغرب خلال نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م. وإلى جانب ذلك كان سكان المنطقة يستعملون الملح الصخري، حيث يقومون باستخراجه وتحويله إلى مادة صالحة للاستهلاك، ويجمعون "الحلفة"، ويغزلونها منها مجموعة من متطلبات الحياة في البادية الغمارية، كالحبل والطبق والقفة، وكذلك الأحذية التي كانت تسمى بـ "اركاسن". وفي قبيلة بني سميح توصل السكان إلى معالجة داء السعار حيث إنه في الحالة التي يعض فيها كلب مسعور أحد الأشخاص يتم علاجه بالطريقة التالية: "يقرع الحيوان ويأخذ حفنة من شعره وحرقها ويوضع رمادها ساخنا على جرح الشخص المصاب، ثم في نفس اليوم، يكتفي بأكل الثوم لمدة عشرة أيام دون تناول أي غذاء آخر، إذا سلمنا بتصريحات وتأكيدات أهل المنطقة، فإن العلاج الوقائي غير المعروف لدى باستور كلل دائما بنجاح"[14].

والخلاصة أن هذه الأنواع من الحرف، سواء كانت تحويلية بمفهومها الضيق أو التقليدية، فإنها لم تكن بحاجة إلى رؤوس أموال كبيرة، ويعزى ذلك إلى بساطة الإنتاج والتقنيات المستعملة، حيث بحث تجار غمارة دوما عن أسواق لتصريفها عبر محاور تجارية مختلفة.

2–الحرف التقليدية بقبائل غمارة.

تتميز الحرف التقليدية بالمنطقة ببساطتها، نظرا لارتباطها الوثيق بالطبيعة، إلا أنها تلبي متطلبات الساكنة. فبني رزين استثمروا الغابة التي كانت ومنذ القديم تشكل مصدر رزقهم الذي لا ينفد[15]، وقد اشتهروا بممارسة حرفة النجارة التي يبدو أنها أصبحت حرفة متوارثة، إذ أشار لويس مارمول إلى أن النجارة بهذه القبيلة خلال القرن 16م كانت تعرف ازدهارا ورواجا[16]. وقد حافظت هذه الحرفة على مكانتها طيلة القرون اللاحقة، فخلال الفترة المدروسة كان السكان يشتغلون كحطابين يقطعون العود الجيد ويصنعون منه الألواح والأبواب والكراسي وبعض الأواني الأخرى التي تستعمل في حياتهم اليومية[17]، ويقول موليراس في هذا الصدد:"...فإنهم يمارسون النجارة، حيث يصنعون الألواح والأبواب والصناديق والمغازل(Fuseaux)ويستخدم واد أورينغا الذي يمكن عبوره بالمراكب من أعلى تازروت إلى مصبه وذلك لنقل الخشب المصنوع"[18]، وقد تفننوا في صناعة هذه الأشياء بإدخالهم عليها تحسينات كنقشها وزخرفتها بألوان مختلفة. كما" أنهم عرفوا بتخصصهم في استعمال مادة صباغية يستخرجونها من جذور الصنوبر، تعطي لونا برتقاليا جميلا ومن جذور نوع الدالية، صباغة بلون أحمر فاقع، فهم متحضرون لتمكنهم من استخلاص ستة ألوان صباغية من النباتات"[19]. وهذه الحرفة المرتبطة بالنجارة من دون شك كانت تضفي جمالا ورونقا على الأواني الخشبية، مما يجعل تسويقها أمرا مربحا. ومما يؤكد حنكة الغماريين في هذا المجال هو توصلهم إلى اختصار هذه الألوان الستة في كلمة "كصح" و"زخم"، التي يشير كل حرف منها إلى لون معين: الكاف يعني (كحل) أي أسود، والصاد أصفر، والحاء أحمر، والزين أزرق، والخاء أخضر، والميم ألوان أخرى[20].وإلى جانب النجارة عرفت هذه القبائل حرفة الحدادة، لصناعة بعض الأواني الفلاحية، كما ارتبطت أيضا هذه الحرفة في قبيلة بني سميح بصناعة أجزاء من البنادق وبارودها[21]. كما ظهرت في منطقتنا العديد من المهن المرتبطة بالأعشاب الطبية، حيث وقفنا على وثيقة تعود لسنة 1270 هـ/1854م، تبرز لنا العديد من الوصفات الطبية المكونة من الأعشاب السائدة في قبائل غمارة (كيفية تبييض الوجه + كيفية استخدام أوراق الدفلة لأغراض طبية)[22].

وعموما يمكن حصر أبرز المهن والحرف الموجودة في قبائل غمارة خلال الفترة المدروسة في الجداول التالية:

الجدول رقم: 1: المصدر: ArchivoDonación Carlos Pereda Roig , Gomara,*Instituto Cervantes Tanger,* Caja 1 ,A/1–A/6 , Carpeta A/2

المكان	Ab ıceros البقّارا	Aceiteros تة	Albañilas البناية	Albarderos البرادعية	Alfareras فخاشات	Alfareros الفخاشة	Alfondigueros الفنادقية	Almonderos الدلالة	Armadores de jabegas صنعة الشبابك	Atabaleros الطبالة	Babucheros الخرازة	Barberos الحجامة	Buñoleros الصفاية	Cafeteros القهوية	Camalos الحمالة	Caldereros النحاسة	Caleros الشواشة
الشاون	97	4	60	4			5	3		4	43	17	9	23	32	2	15
الجبهة																	
بني زجل		3	3		3					10		1		10			12
بني زيات	13	7	10		13	1			4	9	8	4	14	17		3	1
بني بوزرة			8	3		4			2	2	3	5	1	4			1
بني جرير			20	3								2					
بني سميح																	
بني رزين			5			3											
متيوة			9	3		8	2		1			5		5	12		
بني خالد											8	2		7			
بني منصور		5	6	1		8				6		3	7	1			3
بني سلمان		15	8	1		12				5		9	11	2			4
بني احمد			38							14	8	1		8			
غزاوة		5	30	1						12		2		2			
الاخماس العليا		1	6		14	17					30	2	3	16	10		5
الاخماس السفلى		98	15	8	7	5				11	12	6		7			4
المجموع	110	138	218	24	37	58	7	3	7	73	112	60	45	101	54	5	45

الجدول رقم:2 **:** المصدر: ADCP ,Gomara , Caja 1 ,A/1–A/6 , Carpeta A/2

المكان	Car oneros الفحامون	Car niceros الجزارون	Car pinteras النجارون	Cas radores الفحامون	Ce ealistas الخياطون	Col honeras المطاحنيون	Con rciantes	Co ifiteros الحلوانيون	Co deleros الشراءون	Cose heras de l utas الغزالون	Curtidoras غة	Enjalbegadores البياطة	Enterradores الحفارين	Especieros العطارة	Estereros الحصارة	Folleros الروايزية	Gaiteros الغياطة
الشاون		13	25		4	2		6			19	4		12			4
الجبهة																	
بني زجل	65		15	4		1	14	2							17		11
بني زيات	15	5	6		1		20				5	1		7			2
بني بوزرة	15	2			4		7	1			4						2
بني جرير	10		2				7							2			7
بني سميح							3										
بني رزين			13				1	1						1			10
متيوة	5		5				16	3	2			5	4	3	4		9
بني خالد	16	7	22	1			25	3			2			4			6
بني منصور	2	2	3			1	4		7					5	6		4
بني سلمان	3	3	8				11							3	6		7
بني احمد	18	18	16				243	9			9			23		1	3
غزاوة	4	10	1				37	1	45		6			10			10
الاخماس العليا	89	21	11				52	3			1			10			8
الاخماس السفلى	12	7	2				23	6	3		5			4	8		7
المجموع	254	88	129	5	9	4	463	35	57		41	10	4	84	41	1	90

الجدول رقم: 3: المصدر: ADCP, Gomara Caja 1 ,A/1–A/6 , Carpeta A/2

المكان	Guanicloneros البراطمية	Herradores السمارة	Herreros الحدادة	Hilanderas الغزالة	Hojalateros القزدارة	Horneros الفرارنية	Joboneros الصوابنية	Ladrilleros اللواجرية	Navaredores العبارة	Navolineros عمال المقاثي	Musicos الموسيقيين	Navaderos الجبازة	Pastores الرعاة	Sedreros عمال المقال	Pescaderos عة السمك	Pintores الطلاية	Plateros الصياغين
الشاون		2	7	90	3	17	2	9	1	17	10	7			23		1
الجبهة																	
بني زجل		4	14					2		31			43	4			
بني زيات			13		2		2			10	6	21	3		93		
بني بوزرة		3	6					2	1	2	7		30		96		
بني جرير			5			2		1		4					23		
بني سميح			5				59										
بني رزين			7						1								
متيوة		1	6		3			3	2	1		4			14		
بني خالد		2	4		2		5										
بني منصور					1			1	1	7	3		20		9		
بني سلمان					1		7	3	1	10		1	24	2	7		
بني احمد	3	2	2	6	2	5	3		16	93	9	8	757		12		
غزاوة	1	5	6	300	2				4	51	3		300	1			
الاخماس العليا		20	6		1		9	6		211		4	521	2	16		
الاخماس السفلى		11	20		1		4		8	103			210	6			
المجموع	4	50	87	396	18	24	91	27	35	540	37	45	1908	15	293		1

الجدول رقم: 4: المصدر: ADCP, Gomara Caja 1 ,A/1–A/2 , Carpeta A

المكان	pOCEROS عمال المناجم	pregoneros البراحة	Rederos الشباكة	Recoveros	Relojeros المواكينية	Sastres الخياطة	Tejedores الدرازة	Tintoreros الصباغة	Tratantes de ganado تجار الماشية	Tomeros الخراطة	Verduleros الخضارة	Zapateros الطرافة
الشاون		1		3	3	19	320	1	6	1	30	15
الجبهة												
بني زجل		2		5		13						2
بني زيات		1	11	19		4	30					4
بني بوزرة			6	5		7						
بني جرير				3		10	2					
بني سميح				1								3
بني رزين				2		5						
متيوة		1				4					4	2
بني خالد		1		6		1	5					2
بني منصور		1		2		10	3		7	4		
بني سلمان		1		6		12	18		2			1
بني احمد		3		11		13	14					3
غزاوة		1		10		30	20					2
الاخماس العليا		2		4		12	26		4		6	13
الاخماس السفلى		4		9		1	4		2			4
المجموع		18	17	86	3	141	442	1	21	5	40	51

يتضح من خلال هذه الجداول ما يلي:

– أن المنطقة المدروسة كانت غنية بالحرف والمهن التقليدية، حيث ناهزت 63 حرفة وهو ما يؤكد على تمسك الغماريين بتراثهم وإرثهم الاقتصادي، رغم التغلغل الاستعماري وتأثيراته المختلفة.

– هيمنة الحرف والمهن المرتبطة بخصوصية المنطقة الطبيعية (الحواتة293) والغزالة (396) والخزازة (112) والنجارة (129).

– غياب عمال المناجم في قبائل غمارة، ما يعني أن الإمكانيات المعدنية في منطقتنا كانت متواضعة، حيث ظل استخراج المعادن عندما تكتشف، عملية سطحية في الغالب، نظرا لعدم التوصل إلى أساليب لبناء المناجم، الأمر الذي أدى إلى عدم نمو صناعة التعدين المحلية.

– لم تخرج الحرف التقليدية في المجتمع الغماري عن إطار الموروث والمألوف في هذا المجال، فكانت منتوجات القبائل الغمارية لا تتجاوز ما تحتاج إليه القبيلة في حياتها اليومية، ويرجع ذلك إلى انعدام الحس الفني وغياب القدرة على تمثل أشياء فنية أو جمالية، لأن ذلك يعتبر بلا قيمة بالإضافة إلى أشياء ذات قيمة نفعية متميزة بالصلابة والجودة.

– إن الحرف التقليدية القبلية في جميع ربوع المجتمع الغماري، كانت بدائية وثانوية بالمقارنة مع النشاط الزراعي، فكانت تقتصر في أغلب الأحيان على فئة من الناس، لا يملكون أرضا أو يعتبرون دخلاء على القبيلة أو لاجئين أو غرباء، ويكونون في الغالب "امزاوكين" بل لا تسترعي اهتمام سوى فئة قليلة من الناس، حيث كان الفخار يقاسم الحداد احتقار العامة، فكان يعيش في شبه عزلة اجتماعية دون أن يحصل من عمله على شيء يغنيه. ولا تعني هذه الاعتبارات أن الصناع لم يكونوا مندمجين اقتصاديا في وسط المجتمع القروي، بل كانوا مكفولين من طرف هذا المجتمع؛ حيث كان نوع من التعاقد الضمني قائما على تبادل الأدوات بجزء من الزرع، وكان هذا التعاقد يسود بقدر ما كانت تسود الأعراف الجماعية في تقرير شؤون القرية.

– لم تكن المواد الأولية دائما في ملكية الصناع، بل كانوا يضطرون إلى كراء استغلال حفر الخزف أو شراء الأخشاب أو التعويض عن محاجر الجبس أو الجير. وحتى عندما تكون بعض المعادن أو الأخشاب متوفرة في الغابات أو في المناطق المشاعة، فقد كان باستطاعة شيخ أو أبناء أسرة كبيرة أن يشعروا الصانع بما يجعله يسترضيهم ولو بتوفير حاجتهم من إنتاجه.

– ازدياد أزمة هذا النوع من الصناع بسبب ندرة المواد الأولية أو فقدانها، عندما تتعرض للمضاربة من أجل التصدير في النصف الثاني من القرن 19م فلم يعد الفلاحون والرعاة الغماريون يأتون بالصوف والجلد للصناع المحليين الذين كانوا يعالجونها لإنتاج حاجات محلية، يأخذ مقابلها جزءا من المال وقسطا من مواد الفلاحة، بل أصبح ينافس الصانعَ رأسمالي أجنبي أو وكيله، ولم يكونوا ينتظرون أن تأتي الجلود أو الأصواف والأخشاب إلى

أسواق غمارة، بل كانوا يجرون معاملات تضمن لهم تلك المواد بتسبيقات مالية لفلاحين مفلسين. وقد كانت بوادر رأسمال محلي تقوم باستعمال بعض المتمولين المحليين خصوصا مع بداية التغلغل الاستعماري في شمال المغرب.

– إن هذه الحرف والأنشطة كانت محلية لأن القبيلة كانت تكتفي بصنع حاجياتها الضرورية والمستعجلة، دون التفكير في تعميم الصناعة من أجل التبادل المستمر، والذي يمكن أن يكون قاعدة أساسية لاقتصاد القبيلة لأن الحرف كانت تحتل مكانة ثانوية من انشغالات الفلاحين الذين يخصصون أغلب أوقاتهم للنشاط الفلاحي والرعي وتربية الماشية.

الهوامش :

[1]- **أستاذ باحث في شمال المغرب**

[2] – أوجست موليبراس، **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، الجزء الثاني، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، الطبعة الأولى 2013، ص. 242.

[3] - Intervencion Territorial de Gomara, Comarcal de Puerto Capaz, Sintesis de Los Datos mas Interesantes de las Cabilas de Metiua, Beni Erzin, Beni Smih y BniGuerir, Puerto Capaz, 24 de Septiembre 1955. pp. 8-19 -20-30.

[4] – موليبراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 270.

[5] – الصامت هو هلام العنب gelée الذي يتم صنعه عبر تجفيف هذه الفاكهة، ونظرا لقساوة الطقس، فإن العملية تتسم بالصعوبة. ونرى في كل القرى قدورا موضوعة خارج المساكن، يتم تحضير الهلام فيها، أما طريقة إعداده فتتم من خلال عصر العنب الناضج ويطبخ العصير الموضوع في القدر ثلاث مرات، وبعد الطبيخ يترك ليبرد ثم يوضع على النار بعد ذلك، وينجز الهلام حينما يصبح الذي خفض بفعل التبخر إلى الثلثين، مخثرا وحلوا كالعسل. آنذاك يسكب في جرات كبيرة ويحتفظ به إلى الايام الباردة. أما الصامت المسكر Enivrant وهو نوع من الهلام المؤدي إلى السكر، فلا يطبخ سوى مرة واحدة. وقد انتشر بشكل كبير عند غمارة وجبالة.

[6] – موليبراس: مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 221.

[7] – بنعبد الله عبد العزيز،"كيف بدأ التصنيع في المغرب"، **مجلة دعوة الحق**، العدد 267، شتنبر–أكتوبر 1987، ص. 93.

[8] – يقول البعض إن المؤرخ عزوز حكيم يتوفر على وثائق بخصوص ضرب العملة بتاغسة، وأنهم اطلعوا عليها في بيته عند زيارتهم له.

[9] – التهامي عبد الإله الوزاني، "حضارات سادت، غمارة الكبرى معقل العلم والجهاد والتصوف"، **جريدة تمودة**، العدد 210، 4 الى 11 يناير 2009، ص. 7.

[10] – بنعبد الله عبد العزيز،"كيف بدأ التصنيع في المغرب"، **مجلة دعوة الحق**، م. س، ص.93.

[11] – موليبراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 220.

[12] – موليبراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 229.

[13] – موليبراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 230.

[14] – موليبراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 237.

[15] – مارمولكربخال، **إفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية لمحمد حجي وأحمد توفيقومحمد الأخضر، الرباط 1984، ص. 71.

[16] – مارمول، نفس المصدر، ص. 71.

[17] – موليبراس، **المغرب المجهول**،الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 241.

[18] – موليبراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 241.

[19] – موليبراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 243.

[20] – موليبراس، م. س، ص. 243.

[21] – موليبراس، مصدر سابق، ص. 234.

[22] – وثيقة نتوفر على نسخة منها أمدنا بها الأستاذ محمد عبد المومن (أحد أفراد أسرة عبد المومن الغمارية).